

وقعة نهر دجيل واعتزال المفلول لمدينة بغداد

كانت المنطقة الغربية من بغداد الممتدة على الجانب الغربي من نهر دجلة تروى من مياه جدول كان يعرف باسم نهر دجيل . ونهر دجيل هذا كان يتفرع من الجانب الغربي لنهر دجلة في نقطة تقع شمال بلد الحالية بقليل فيسير موازياً لنهر دجلة حتى ينتهي إلى بغداد الغربية فيفنى هناك ، وكان القسم الذي يصل إلى منطقة بغداد يعرف باسم نهر بطاطيا . وكان هذا النهر من أهم الأنهار الرئيسة التي كانت تعد مدينة بغداد الغربية بالمياه السيحية ، فكان يعد أن يخترق « طسوج مسكن » ماراً بمدينة « مسكن » ينتهي إلى « طسوج قطربل » ومنه إلى « محلة الخريبة » في شمال مدينة بغداد الغربي . ويصف لنا ابن سرايون المتوفى في حسدود أواخر القرن الثالث الهجري جدول بطاطيا وفروعه المنتهية إلى مدينة بغداد ، قال ما هذا نصه : « ومن أنهار الخريبة نهر يحمل من دجيل يقال له نهر بطاطيا أو له من أسفل فوهة دجيل بسطة فراسخ ، يمر فيسقى ضياعاً وقرى ويمر في وسط مسكن ، ويصب في الضياع ويفنى فيها . ويحمل منه نهر أسفل جسر بطاطيا يسمى يسير يحيى ، نحو مدينة السلام فيمر على عبارة مدرج فتنطرد باب الأنبار ثم يدخل بغداد من هناك فيمر في شارع باب الأنبار ويمر في شارع السكبش ويفنى هناك » .

وقد قام نهر دجيل هذا بدور خطير في تقرير مصير معركة ٩-١٠ من المحرم من سنة ٦٥٦ هـ بين جيش هولاكو الغربي وجيش الخليفة المستمع ، وهي جزء من المعركة الحاسمة التي غيرت مجرى تاريخ الخلافة العباسية ، وأدت إلى استيلاء المفلول على بغداد . وخلاصة الحادثة ، كما رواها مؤلف الحوادث والوزير رشيد الدين فضل الله الهمذاني هي أن هولاكو لما قرر غزو العاصمة العباسية أرسل قسماً من جيوشه إلى أربيل على أن يمروا نهر دجلة في الموصل ويسيروا

وقعة نهر دجيل واحتلال المغول لمدينة بغداد

بحمادة ضفته الغربية حتى يصلوا إلى جهة بغداد الغربية^(١) . وقد أتجه هذا الجيش بعد عبوره نهر دجلة في الموصل نحو نهر دجيل فأخترق الجيش المنطقة الواقعة غربيه حتى وصل إلى نهر عيسى الواقع في ذئاب نهر السقلاوية الحالي ، فمسك هناك ومن ثم وصل إلى محلة الحريسة من شمال غربي بغداد (شمال غربي السكاظمية الحالية) في نقطة تقع على بعد فرسخ واحد من قنطرة باب البصرة ، وهي القنطرة التي كانت تقع في جوار موضع الجميفر الحالية . وما إن تقدمت جيوش الخليفة لمقاتلة المغول حتى تظاهر المغول بالانكسار على وفق خطة مرسومة فتراجعوا إلى الشمال في الأراضي السهلة الواقعة غربي نهر دجيل فتهبهم جيش الخليفة مدفوعاً بحماسة الانتصار للهجوم دون أن يلتفت إلى جنائحه الأيمن الممتد بحبال نهر دجيل شرقاً^(٢) . وهمسكنا استمر جيش المغول على التراجع وجيش الخليفة يتقدم إلى الشمال وراءه ، وكلاهما يسير في أراضٍ سهلة خالية من الموارد الطبيعية التي يمكن أن يحتمي بها جيش الخليفة في حالة كثر المغول عليهم ، فأدركها الليل فمسك جيش الخليفة في موضع يقع في شمال النهر المسعس « نهر بشير » من فروع نهر دجيل على بعد تسعة فراسخ من بغداد شمالاً . وقد وصف مؤلف الحوادث « نهر بشير » بقوله إنه « بيز دجيل »^(٣) . ووصف الوزير رشيد الدين فضل الله الهمداني في كتابه « جامع التواريخ » للموضع الذي عسكر فيه جيش الخليفة بقوله إنه « حبال الأنبار قرب قلعة المنصور تحت المزرقة على بعد تسعة فراسخ من بغداد » .

(١) قلنا ما ذكره رشيد الدين فيما يخص بالموضع الذي عبر فيه الجيش المغولي نهر دجلة ، إلا أن ابن المقلفي خالفه في ذلك فقال إن عسكر هولاكو المتوجه إلى غربي دجلة عبر نهر دجلة من نكربت وهو الأمر المقول وقد أبدت التواريخ العراقية هذا الاتجاه للجيش العربي (راجع كتابه « الفخري » طبعة غريغزولد سنة ١٨٥٨ م ٣٨٦) .

(٢) يستدل مما رواه مؤلف الحوادث عن هذه الواقعة أن الأمير فتح الدين بن كر الذي كان يرافق الحملة قد أشار على قائد الجيوش ، وهو الدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك ، بأن يثبت مكانه ولا يتبع المغول فلم يصح إلى أنشأته وأظهروا أنه انضم إلى المغول بعد أن رفضت نصيحته .

(٣) ذكر رشيد الدين الهمداني هذه المنطقة نسبها « البشيرة » من نواحي دجيل .

ولقد تمحرننا كثيراً في هذه المنطقة علنا نعثري على نهر قديم باسم « نهر بشير » في بزاي نهر دجيل ، واسكننا لم نجد لهذا الاسم أثراً ، ونميل الى اعتقاد أن النهر المتبق المتشعب من الضفة اليمنى لنهر دجيل بالقرب من التلول المعروفة اليوم باسم « تلول التناظري » الذي في الاراضي الواقعة بين النهرين ، دجلة والفرات ، متجهاً نحو بزاي نهر الصقلاوية الحالي ، هو من آثار « نهر بشير » الذي ذكره مؤلف الحوادث ، ويسير هذا النهر بموازاة النهر العتيق المعروف اليوم باسم « نهر مسعود » من الناحية الشمالية متجهاً نحو الأراضي المنخفضة المعروفة اليوم باسم « أراضي الهورة » في جوار النهرين السكساوي والميساوي من فروع ذئاب نهر الصقلاوية الحالي . ويقع الموضع الذي عسكر فيه جيش الخليفة ، الذي وصفه رشيد الدين بأنه « حيال الأنبار قرب قلعة المنصور على تسعة فراسخ من بغداد » في جوار التلول المعروفة اليوم باسم « قبور الياسري » وهي التلول الواقعة وسط أراضي الجزيرة الممتدة بين النهرين ، دجلة والفرات ، على مسافة نحو من أربعين كيلو متراً من شمال مدينة بغداد (راجع الخارطة المدرجة مع هذا البحث ، التي تبين مواقع المركة بين جيش هولاء وعساكر المستعصم في غربي بغداد) . ويتفق هذا الموضع مع وصف رشيد الدين الهمداني حيث يقع حيال الأنبار ، كما أنه يقع بالقرب من التل المسمى اليوم « تل المنصور » وهو حقيق بأن يكون موضع « قلعة المنصور » التي ذكرها رشيد الدين ، ويقع هذا التل بالقرب من موضع « الامام منصور » الحالي على مسافة نحو من أربعة كيلو مترات من جنوب غربي قرية الدجيل الحالية (سمكة) وعلى بعد زهاء اثني عشر كيلو متراً من شمال شرقي « قبور الياسري » .

ويظهر أن قواد الجيش العباسي بانوا ليلتهم تلك في هذا الموضع ثلثين بنشوة الانتصار الموهوم إذ لم يحسبوا حساباً لما كان بينه لهم النول من مكيدة لابقاعهم في الغيغ ، فبينما كان جيش الخليفة منتبهاً بما عده نصرأ كبيراً كان الجيش المغولي نهياً للمجوم الذي رسمت خطته من قبل ، فقام بسد نهر دجيل ليلاً وحولوا مياهه كلها الى (نهر بشير) ففاض هذا النهر وغمر « أراضي الهورة » المنخفضة الواقعة وراء الجيش العباسي فغطت عليه خط الرجوع ، فلما

وقعة شهر دجيل واحتلال المغول لأدينة بغداد

باغتته المغول بهجومهم المفاجيء ، فركض راجعاً الى بغداد ، فوجد نهر بشير قد فاض من الليل وملاً الصحراء « فمجزت الخيول عن سلوكه ووحلت فيه ، فلم يخلص منه إلا من كانت فرسه شديدة ، وألقى معظم المسكر أنفسهم في دجلة فهلك منهم خلق كثير ودخل من نجا منهم بغداد مع الدويدار على أقبح صورة ، وتبعهم المغول يقتلون فيهم وغنموا سوادهم وكل ما كان معهم ، ونزلوا بالجانب الغربي [من بغداد] وقد خلا من أهله » . هذا ما قاله مؤلف الحوادث عن مصير هذه الحركة التاريخية التي مهدت السبيل لهولا كو من الجهة الشرقية في حصاره مدينة بغداد الشرقية حتى أتم احتلالها .

ومما ساعد على غمر الأراضي من وراء الجيش العباسي أن الموسم الذي وقع فيه هذا الحادث كان موسم فيضان ، إذ يوافق يوم الحادث (١٠ المحرم سنة ٦٥٦ هـ) ١٤ كانون الثاني سنة ١٢٥٨ م ويكون في منتصف الموسم المذكور . ومن المعلوم أن هطول الأمطار في هذا الموسم يؤدي الى ارتفاع مناسيب مياه النهرين ، دجلة والفرات ، فيعرض أرض الدلتا كلها لخطر الفرق إذا لم تتخذ تدابير واقية لدفع خطر الغمر عنها . وقد جاء فيما ذكره مؤلف الحوادث ما يؤيد أن الموسم الذي وقع فيه الحادث كان موسم أمطار ، إذ ذكر أن المغول لما احتلوا بغداد « قتلوا الرجال والنساء والصبيان والأطفال وكانت القتل في الدروب والأسواق كالثلول ، ووقعت الأمطار عليهم ووطئتهم الخيول فاستجالت سورهم » ، وأشار الى وجود الوحول في العارق بقوله أن « عدد القتلى زاد على ثمانمائة ألف نفس عدا من ألقى من الأطفال في الوحول » .

ومما قاله الرشيد الهمداني في « جامع التواريخ » في هذا السدد « إن عساكر المغول وصلت الى البشيرية من نواحي دجيل وكانت المياه كثيرة غزيرة في تلك المواضع فكسر المغول سدود المياه حتى غمرت الأرض من وراء الجيش العباسي كلها ، وفي العاشر من المحرم في طلوع الشمس هجم المغول على الجيش العباسي ، وقتل ابن كر وأمير معه اسمه قراسنقر ، وقتل من عسكر الخليفة

اثنا عشر ألفاً عدا التتورطين في الطين ونجا الدويدار مع جماعة قليلة من العسكر فدخلوا بغداد .
وقد يكون من المفيد أن ندون هنا رواية ابن الطقطقي في كتابه « الفخري في الآداب
السلطانية والدول الإسلامية » عن الواقعة المذكورة ، وكان معاصراً لها ، قال : « حينئذ وقع
الشروع في قصد بغداد وبث العساكر إليها . فتوجه عسكر كثيف من المغول والمقدم عليهم
باجو إلى تكريت ليمبروا من هناك إلى الجانب الغربي ويقصدوا بغداد من غربيها ويقصدوها
العسكر السلطاني من شرقيها . فلما عبر عسكر باجو من تكريت وانحدر إلى أعمال بغداد أجفل
الناس من دجيل والاسحافي ونهر الملك ونهر عيسى ودخلوا إلى المدينة بنسائهم وأولادهم حتى
كان الرجل أو المرأة يقذف بنفسه في الماء ... فلما وصل العسكر السلطاني إلى دجيل وهو يزيد
على ثلاثين ألف فارس خرج إليه عسكر الخليفة محبة مقدم الجيوش مجاهد الدين أبيك الدويدار ،
وكان عسكراً في غاية القوة فالتقوا بالجانب الغربي من بغداد قريباً من البلد . فكانت الغلبة في أول
الأمر لعسكر الخليفة ، ثم كانت السكرة للعسكر السلطاني فأبادوهم قتلاً وأسراً وأعانهم على ذلك
نهر فتحوه في طول الليل فسكرت الوحول في طريق المهزمين فلم ينج منهم إلا من رمى نفسه في
الماء أو من دخل البرية ومضى على وجهه إلى الشام . ونجا الدويدار في جيئة من عسكره ووصل
إلى بغداد » . وقد أشار ابن الطقطقي في موطن آخر نقلاً عن ابن أيدمر الذي شهد المعركة
نفسها قال : « حدثني فلان الدين محمد بن أيدمر قال كنت في عسكر الدويدار الصغير لما خرج
إلى لقاء القتر بالجانب الغربي من مدينة السلام في وافتتها المعظم سنة ست وخمسين وستائة قال
فالتقينا بنهر بشير من أعمال دجيل فكان الفارس منا يخرج إلى البارزة وتحت فرس عربي وعليه
سلاح تام كأنه وفرسه الجبل العظيم ثم يخرج إليه من المغول فارس تحته فرس كأنه حمار وفي يده
رمح كأنه المغزل وليس عليه كسوة ولا سلاح فيضحك منه كل من رآه ثم ما من النهار حتى كانت
لهم السكرة فسكسرونا كسرة عظيمة كانت مفتاح الشر ثم كان من الأمر ما كان » .

ومن غريب المصادفات أن معركة مصعب بن الزبير مع عبد الملك بن مروان كانت قد وقعت

وقعة نهر دجيل واحتلال الفول لمدينة بغداد

في نفس موضع وقعة الفول المتقدمة قبل زهاء ستمائة عام ، وهي المعركة التي اقي فيها مصعب بن الزبير حثفه . وبلاحظ أيضاً أن معركة البرسقي مع ديبس بن صدقة صاحب الحلة في سنة ٥١٦ هـ كانت قد وقعت في جوار الموضع نفسه إذ ذكر ابن الأثير أن « البرسقي أرسل إلى الموصل وأحضر عساكره وسار إلى الحلة وأقبل ديبس نحوه فالتقوا عند نهر بشير شرقي الفرات واقتتلوا فانهزم عسكر البرسقي » .

أحمد سوس